

ان الحركة والنظام يمثلان حقيقة ثابتة في الكون والطبيعة والمجتمع ،وتظل الحياة ملازمة دائماً لوحدات النظام واتحادها ،وعلية فان الروابط الاسرية تعتمد اساساً على نظام العلاقة بين الرجل والمرأة. والنظام هذا ما هو الا تكامل جسدي يشعر كليهما بوحدة حياة جديدة يتشرفن بها التكامل الواقع بين جوهريهما جنسيا وروحيا .(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبا الباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون)(١)(سورة النحل ٧٢).

اذن فالتكامل والتنظام هما اساس الترابط الاسري وان معنى الاتحاد بين الزوجين يوجب عليهما الوفاء والحب لبعضهما من خلال ادراكهما لواقع الفروقات التي تميز بينهما بما فضل الله بعضهم على بعض ،وبحدود الادوار التي يؤديها كل منهما لغرض استمرار حياتهما الزوجية .اي لافرق بين رجل وامرأة الابدود ما يحملونه من خصائص (بايولوجية ونفسية) تكمل بعضها نحو حياة اسرية سامية وعلاقات اجتماعية راسخة ومستقرة (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم)(٢)(سورة التوبة ٧١).

فما يساوي بين الناس هو حاجة بعضهم الى بعض والحاجة اساسها الاختلاف، وبالتالي فان الاعتراف بوجود الاختلاف يكون بداية التحرر وانزواء الاضطهاد ومهما يكن الامر فالانسان كائن منحاز اما الى نوازعه الغريزية واما الى ايثارية والنوازع الغريزية توحى وتلهم بالمعاني الانانية المترعة بكل ما هو نقيض لمعاني الحق والخير والجمال، في حين تمثل الايثارية نشاطا انسانيا يتجاوز انانية الذات وحبها لنفسها الى الانسانية الى ما هو عام.

ومن هنا لابد من قيمة المحبة التي مصدرها الحب وموضوعها الانسان من دون تمييز ولا تفرق ،حيث يترجح الجانب الانساني الايثاري في الشخص على الجانب الاناني اذا ما كان الحب يعني الميل الى الآخر روحيا وجنسيا. ولهذا كان الحب العذري بعيدا عن الاشتهااء الجنسي العابر كونه يتخطى الحدود والسدود لغرض المحبة كقيمة انسانية. ولذلك كان هذا النوع من الحب حبا استثنائيا في المجتمع العربي ،لان الجنس في مجتمع العصبية مباشر يصدر عن طبيعة الانانية العدوانية من دون تهذيب او عقلنة. والروابط الاسرية كنظام يقوم على ضرورتين ،ضرورة الخاص (الزوج والزوجة) وضرورة العام (المجتمع) فبدون اي منهما ينتفي الآخر ويسقط التوازن بينهما وتحل الفوضى في الحياة الاجتماعية ،ما لم تتداركه سلطة عقلانية تعتمد الشريعة الاسلامية منهجا لاعادة التوازن بين الضرورتين وذلك وفق مفهوم المصلحة. والمصلحة في كل ما يبحث على الصلاح بما يتعاطاه الانسان من الاعمال الحافزة على نفعه ونفع الاخرين واذا انتظمت المصلحة وجمعت بين الخاص والعام فانها قد بلغت منتهى العقلانية ،والانسانية، وبهذا التكامل يكون العمل الصالح (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين.)(٣)(سورة غافر ٣٣). اذن بالعمل الصالح تتضح صورة المفاضلة بين المرأة والرجل بما يحقق ادوارهما في الحياة الزوجية والاجتماعية فالرجل بحكم ما منحه الله من رزانه الرأي والتدبير ومزيد من القوة ،كفله بالكسب والانفال (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)(٤)(سورة النساء ٣٤) فهو يقوم على المرأة بالحفظ والرعاية، ولذلك خصه الله بالنبوة والامامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك . هذا ما يخص مسؤولية القيادة والانفاق عندما يكون الرجل حاضرا ،ولكن في حالة غياب الرجل لسبب من الاسباب ،فقد تتقدم المرأة وتكون المسؤولة الاولى في القيادة، وعندها تكون قوامة في اتخاذها القرار ورسم سياسة الاسرة والمجتمع . (وجد من دونهم امرأتين تزدان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير)(٥)(سورة القصص ٢٣)

فغياب الرجل جعل من المرأة ان تكون اولاً في تحمل مسؤولية الانفاق والكسب على ان تمتثل لحدود الشرع والقيم الانسانية بما لا ينتقص من انزالتها وعفتها وهي تشاطر الرجال مسؤولية القيادة (تذودان).

وهكذا تتتابع حلقات التكامل بين الرجل والمرأة لتنتهي بالقبول والتوافق نحو المعاشرة والتزواج "فجانتها احدهما تمشي على استحياء قالت ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت" (٦) (سورة القصص ٢٥).

والاجر هنا لم يكن اجراً مادياً بقدر ما كان تكاملاً روحياً وجسدياً بموجب تزوج موسى - عليه السلام - باحدى بنات شعيب - عليه السلام. وبهذا التكامل اتضحت مسؤوليتهم وتكاملت روابطهما الاسرية لتتحقق الهداية وتنظم حلقاتها بالخير الكثير (فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله انس من جانب الطور ناراً) (٧) (سورة القصص ٢٩).

بيد ان البيئة الاجتماعية المختلفة والقائمة على التمايز والتمييز بين الجنسين عادة ما تنتج قيماً تسعى لاستغلال مكانة المرأة وسلب جوهرها الانساني، بما يجعلها متعة للرجل تثير غريزته وتشبع شهوته، واذا ما اصابه الملل استبدلها بواحدة او هجرها وقتياً او دائماً دون الرجوع الى تقييم افعالها الصالحة او الطالحة. وفي ظل المجتمع الذي تسكنه العصبية فان الرجل قد يتزوج تحت وطأة هذه القيم المختلفة ليمارس بالزواج السلطة والسيادة كقيمتين لهما حضور في الاسرة والمجتمع، فهو يمارس سلطته وسيادته مهما كان مركزه الاجتماعي وضيعاً فالزوج يكون سيداً مطاعاً يصدر الاوامر وينهي ويردع وعلى جميع افراد اسرته ان يستجيبوا له دون نقاش وبذلك قد يتمكن الرجل من تعويض مكانته او مركزه المتدني في المجتمع. وبفعل هذه البيئة المختلفة والمتناقضة وغياب المؤسسات العلمية والتربوية الخيرة فقد يساهم كل من الرجل والمرأة في نقل تلك القيم التفاضلية الى الاجيال عن طريق التنشئة الاجتماعية الخاطئة والمحاكاة والتقاليد، وتصبح بمرور الزمن قيماً ملزمة لكليهما لا يمكن الخروج عليهما. وبطبيعة الحال ان استمرار مثل هذه الحالة يساعد على خلق ظواهر ومشكلات اجتماعية كثيرة ومتنوعة من بينها العنوسة والعنوسة: يعني بها تأخر سن الزواج لدى المرأة، وقد يحدث ذلك لاسباب مختلفة من بينها ان فرصة الزواج محددة بعمر معين وبمواصفات يحددها النسب والحسب والجمال الى حد كبير. يضاف الى ذلك انها لا تمتلك حرية الاختيار الا في ظروف معينة.

بمعنى اخر ان فرصة الزواج بالنسبة للمرأة غير مفتوحة مثلما هي الحال عند الرجل الذي يمتلك حرية الاختيار في اكثر الاحيان اضافة الى كونه يستطيع الزواج في اي فترة من فترات عمره، حيث يجد من تقبل به زوجاً وان كان عمره في السبعينات، بينما قد لا تتوفر مثل تلك الفرص للمرأة اذن فالعنوسة بالنسبة للمرأة ماهي الا زمن يأكل شبابها ويمنع زواجها حيث تشكل شبحاً مخيفاً له واقعه السلبي على شخصية الفتاة وافراد اسرتها.

واستمرار لهذه البيئة وقيمها السلبية تتقبل المرأة فكرة الزواج بكل تبعياته الثقيلة لكي لا تطولها العنوسة في ظل مجتمع اعتمد على تفاضلية القيم واقعا لعلاقاته الاجتماعية.

ولما كان الزواج يتمشى مع ارادة الله و ارادة الحياة كقيمة انسانية، فان المعاناة التي تواجهها المرأة تحت وطأة الزواج بما فيه تسلط الرجل واستغلاله وعدم ضمان معاشرته اكثر طمأنينة في الفرد والمجتمع من ان تبقى عانساً.